هذا البستان لا يفكر في قتال العدو ـ ص ٢٣٥ » فيجيب محمود : « بل يمكن ان يفكر في قتال العدو اذا استطاع دحر ثقل هذه الامتيازات عن عقله » ، وحسن يعي دوره محمود وقدرته النظرية والتنظيمية ، ولهذا فهو يقرر اثناء توزيع المسؤوليات ، وخلال حديثه مع محمود : « انت لا يجب ان تشارك في اي هجوم ، انت تبقى للتنظيم ، للتفكير ، للتخطيط ، فاذا مت انا فعليك عندئذ اما ان تدبر منفذا جيدا او ان تتقدم انت للتنفيذ ـ ص ٢٦٨ » ٠

ان هذا التناظر بين شخصيتي محمود وحسن يضفي على الرواية نوعا من التناغم المحكم البعيد عن اسار النمطية ، واذا كانت التباينات الطفيفة تبدو بينهما من خلال مواقف كل منهما ، ومن خلال النبض الداخلي لشخصيتيهما ، فان الوضع لدى الشخصيات النسائية لا يبدو هكذا تماما ، اذ ان التباينات الصارخة تبدو ، على الاغلب ، خارجية ، فماذا عن شخصية ام محمود مثلا ؟ انها ام فلسطينية طيبة ، ولداها وطنيان معنيان بالثورة ، وزوجها مناضل قديم استشهد في احدى المعارك ، واخوها مختار انتهازي متعاون مع السلطة ، في المقابل هناك ام حسن ، ام فلسطينية طيبة ، ولدها وطني معني بالثورة ، زوجها شرقي تافه مزواج ، واخوها شيخ طهراني يتعقب اللصوص وهو ذو ماض وطني طيب ، وتنفرد ام حسن بشخصية قوية باهرة ، فقد استطاعت ان ترغم زوجها على تطليقها ، كما انها امرأة منتجة تصنع الطوب بنفسها ، على انها رغم هذا التفرد لا تبدو ، في جوهرها ، مختلفة عن ام محمود ، فهما تعدان الشاي والطعام دائما لاولادهما وضيوفهما ، كما تستقبلان دون حرج علاقات الحب بين الشباب : ام حسن تستقبل في بيتها زينب حبيبة ابنها ، وام محمود تستقبل ندى حبيبة محمود ، وهذا التشابه بين الشخصيتين ينبع من محدودية عالم المرأة في بلدنا ، وان كان من حق الكاتب التنويه بالحاح على نجاحه في استخلاص شخصيتين نسائيتين (ولا سيما شخصية ام حسن) من هذا الجو المحدود ٠

ويتاح للكاتب فرصة اكبر في اظهار التناظر بين شخصيتين نسائيتين ، عندما يقدم لنا ندى وسعدية ، فهما صبيتان ، والتطور الذي ادركه جيلهما قياسا الى جيل ام محمود وام حسن يسمح لكل منهما بتفرد اوضح ، فماذا نرى ؟ نرى ، من جهة ، سعدية مسكينة خجولة مكسوفة تحب ابن عمها ولا تستطيع مصارحته ، ومن جهة ثانية تبدو ندى قوية ، شجاعة ، تخرج مع حبيبها الى الشارع ، على مرأى من الناس ، وحين ينفردان ، تطلب منه ان يقبلها ، ثم حين يبدأ العمل النضالي تجد لنفسها دورا ٠٠ هو دور بسيط على اي حال ، لكنه دور امين للواقع بلا تهويل ولا طنطنة ، واذا كانت شخصية ندى غنية ومقنعة ولصيقة بجسم الرواية ، فان سعدية لا تبدو ضرورية ، انها شخصية زائدة ، ولعل دورها لا يعدو ان يكون وظيفيا ٠ القول نفسه يصدق على شخصيتي زينب وسهام التي يرد اسمها مرة واحدة في الرواية ٠

ويدخل في سياق التناظر الذي تقدمه الرواية ، شخصيتان فريدتان : هما مدينة اريحا ، اخفض منطقة في الارض ، وجبل التجربة الشاهق ، واذا كانت المدينة قد شهدت تاريخا ملتحما بالحاضر ، فان الجبل شاهد على هذا التاريخ ، والمدينة في انخفاضها المريع موصولة بقمة الجبل الذي هو « تمثال للصبر الفلسطيني ، انه راسخ مهيب ، ثقيل وصلب ـ ص ١٢٦ »، بهذا التناظر يختلط الفلسطينيون بطبيعة